أهو تخبط فكري أم أكثر؟

تعقيب على ما سبق من حوار لأفكار د. يوسف سلامة

-١-

في مقابلة مع الدكتور يوسف سلامة –نشرتها جريدة الكفاح العربي، بتاريخ ١٩٩٩/١٠/٢٠ وعالجنا بعض ماجاء فيها في المقالة السابقة قرأت أطروحات، لم أعتبرها مغلوطة فحسب بل خطيرة فكرياً أيضاً. وقد عمدت إلى استنطاق ما تقوله هذه الأطروحات بشيء من الرفق، فوجد اثنان من الكتبة المجهولين فرصة (للعربشة) على ما كتبت، فدبجا مقالتين متواليتين في الرد عليَّ هارفين بما لا يعرفان، بل شبه شاتمين أحياناً.. ومتعالمين بشكل دائم، كذلك.

ولما كنت لا أستفز كثيراً بالهرف والشتائم والتعالم، فقد قررت أن أعيد مناقشة أطروحات الدكتور سلامة مبيناً خطورتها بوضوح وتفصيل وتدقيق بدءاً من البدهيات التي صار يبدو أن علينا العودة إليها في كل مقالة كي يتعلم أنصاف المتعلمين من (المعربشين) ما يعيد صوابهم إليهم، إن كانوا قادرين على ذلك.

ويؤسفني أن ظروفاً مستجدة لمجلة (الكفاح العربي) حالت دون نشر تلك المناقشة فيها، كما يؤسفني أن الحيز المتاح هنا يجبرني على الاختصار، الذي سأحاول قدر الإمكان ألا أجعله

مخلاً، مع ملاحظة أن ما نشر في المقابلة المذكورة هو وحده ما يعنيني، فإن كان للدكتور سلامة آراء مختلفة في مواضع أخرى فهي لا تهمني، لا بل إنها تؤكد ما سبق أن ذكرته عن (التخبط الفكري) بدل أن تدحضه.

فلننظر بتبصر في تلك الأطروحات كيف تبدأ، وإلى ماذا تنتهي.

-٢-

يقول في أطروحته الأساسية في تلك المقابلة:

(إذا ما نهضت حضارة ما على فكرة محددة- وهو يرى، وبالحرف، أن لكل حضارة فكرة أساسية واحدة- فإن هذه الفكرة لا تنهض عليها إلا فكرة واحدة. وعندما تتحقق الحضارة المستندة إلى فكرة معينة فإن من المتعذر لها أن تنبعث من جديد بعد انهيارها، ومن المتعذر أيضاً أن تنهض حضارة جديدة على الفكرة نفسها).

وسنعتقد أن ثمة خطأ مطبعياً في عبارة (الفكرة لا تنهض عليها إلا فكرة واحدة) وأن المقصود (حضارة واحدة) كي لا تكون العبارة مضحكة من مفكر مثله. ولكن الأطروحة مغلوطة كلياً، ومن أساسها وسنكتفي بمثال واحد- إيجازاً- للتدليل على ذلك. إن فكرة (الرق) هي فكرة أساسية قامت عليها جملة من (الحضارات) خلال أزمنة تاريخية طويلة.. ولا نظن أننا بحاجة إلى تعداد هذه الحضارات أو بعضها.. لكننا سنشير إلى أن (النمط الحضاري الإمبريالي) الراهن هو (نمط استرقاقي) معمم عالمياً، وفي مستوى جديد أعلى من أشكاله الأولى إذ هو يجمع بين صيغة مطورة جداً- تبعاً للشروط الراهنة- من (ديموقراطية

عصر الرق) الأثينية، ومن (العسكريتارية الرومانية) كنمط فعالية مدججة بأحدث منجزات التكنولوجيا، ومن (روحية توراتية/ تلمودية) إبادية.. ونحن هنا نعرف أننا نناقض كلياً رأي الدكتور سلامة الذي سيعرضه أو سنعرض له، لاحقاً متهمين هذا الرأي بأنه: إما تلاعب بالتاريخ الرأسمالي الإمبريالي المجمع عليه، وإما تجاهل له عن تعمد.

وكون النظام الرأسمالي /الإمبريالي- وهو الآن نظام حضاري عالمي شمولي – هو نظاماً استرقاقياً فذلك ما قادنا في النقاش السابق إلى ذكر (المركزية الأوروبية) في الثقافة وذكر (معجزتيها المختلفتين: الإغريقية/ الرومانية والعبرانية التوراتية) كأساس لها وكأصل لنهضة أوروبا الحديثة!

غلط هذه الأطروحة الأساسية لدى الدكتور سلامة واضح جداً حسب المثال الذي أوردناه ، وحسب غيره مما يمكن لنا أن نورده، وهذا الغلط يقود مباشرة إلى غلط نظرته لمعنى الانبعاث الحضاري الذي يرى هو استحالته.

إنه يدعي أن معنى الانبعاث الحضاري لأمة كالأمة العربية يعني (قيامة تفصيلية) لظروف وبشر ودول مرحلة النبوة وما تلاها، وهو ما يقوله حرفياً في فقرة تالية. وهذا الإدعاء لم يسمع من غيره، لا بل إنه لا يوجد متعلم عادي أو أصولي متزمت ونوستالجي يفكر بمثل هذا المعنى للانبعاث!.. فلماذا إذاً يحصر هذا المفهوم المعقد في هذه الشكلانية والسطحية مع غمز ولمز حول الحضارة العربية الإسلامية (والشعوب المفتوحة، والأمم التي تعرضت للغزو والتي بموجب ذلك تغيرت هويتها وثقافتها وأضيفت إلى المجموعة العربية الإسلامية.. إلخ؟!)

بالطبع، هناك أسباب لدى الدكتور سلامة وستظهر تباعاً!

-٣-

إن نفي إمكانية البعث والتجدد بالنسبة للأمة العربية هو، في منظوره، نفي يصل درجة الاستحالة، وهذا الأساس سابق الذكر سبب واحد. فلنقرأ ما يقول تالياً:

(أرى أن العلاقة بالماضي هي علاقة مؤقتة. بمعنى أن الأمة التي تملك تراثاً قديماً مثل الأمة العربية، إذا ما أرادت أن تظهر من جديد فإن عليها أن تتخطى فكرتها الحضارية القديمة لأن البعث والتجدد أمران مستحيلان كما ذكرت وبالتالي عليها أن تنتج فكرة حضارية جديدة وهذا يعني أن عليها أن تمضي إلى ما وراء العروبة ذاتها، ولكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك إلا إذا ارتكزت بصورة مؤقتة إلى هذا البيت القديم، أو هذا الكوخ شبه المتهدم الذي هو الحضارة العربية الإسلامية)!!

فلنتمعن في هذا القول ولنستخرج محتوياته:

أولاً: الدكتور سلامة يطلب إلغاء تاريخنا، إذ (العلاقة بالماضي مؤقتة).

ثانياً: لا أحد يجادل في أن (الفكرة الحضارية القديمة) للأمة العربية هي (التوحيد) وما يرتبط به من نظم قيمية وسلوكية وعلائقية إلى آخره. فهل يطلب الدكتور تخطي هذه الفكرة كمنظومة رؤيوية اعتقادية تحدد معنى وجود أفراد الأمة، والأمة ذاتها، في أطر الإنسانية والطبيعة والكون؟!

وهذا ببساطة يحقق- سلمياً وذاتياً!! - أطروحة هنتنغتون الأولى في (صدام الحضارات) كي يتم

الانتصار النهائي العالمي للغرب!!

ثالثاً: هو يطلب (تجاوز العروبة ذاتها) بالمضي إلى ما وراءها!! إلى أين؟! سنرى ذلك، مع تقديرنا البالغ لكرمه الذي سمح لنا مؤقتاً بالإقامة في (كوخنا شبه المتهدم) ربما من أجل (إعادة تأهيلنا) لما سيفصله لنا بالموارية الكافية!!

هذا هو المنطوق الواضح للمقبوس السابق. وكل (خطاب المداورة) الوارد بعد هذه المطالب لا يمكن لعاقل أن يرى فيه غير (تمريقة على القارئ)!

-٤-

ما الذي وراء العروبة التي علينا تجاوزها استجابة لمطالب الدكتور سلامة؟!

الجواب سهل.. إنه استنبات فكرة حضارية جديدة- وقد تجاوزنا كل معوقات وجودنا!- تتيح لنا أن نلتحق بالغرب، ربما بالذوبان فيه!.. وسيقال لنا أن الدكتور قال.. وقال.. عن صراعنا مع الغرب. ولكن لنقرأ ما قال ولنتبصر في مدلوله. قال الدكتور سلامة في نهايات حواره:

(بإمكاننا أن نلوم الغرب وأن ندين بعض العناصر في ثقافته -لاحظوا هذا اللطف البالغ في "نلوم" وفي "بعض"!- ولكن يجب ألا يتسع هذا اللوم بحيث ندين جوهر هذه الحضارة القائمة على العقل والتقدم والحرية وحقوق الإنسان والمساواة، حتى ولو لم يكن الغربيون مخلصين في تطبيق هذه المعايير على غيرهم.. إن مظالم الساسة الغربيين والصفة الاستعمارية للغرب لا تعني بطلان المبادئ).

بالتأكيد جميل جداً أن تختزل الوحشية الاستعمارية والهيمنة الإمبريالية المدمرة إلى هذه الصورة اللطيفة التي تظل فيها المبادئ غير باطلة رغم كل شيء، إذ ربما الحق على شعوب العالم لأن الإمبرياليين سببوا لهم ما يعرفه تلاميذ المراحل الابتدائية في أي بلد من كوارث!.. ولكن لنترك الدكتور يوضح أكثر من فقرة تالية: (علاقة الثقافة العربية، التي تنتمي إلى عصور غابرة، مع الغرب هي علاقة صراع.. والغرب هو الأقوى، وهو الأكثر مدنية والأكثر تقدماً والأشد سطوة وهو الذي يمتلك المعايير الأقوى لحقوق الإنسان ولكن هذا لا يعني أن نستسلم أمام ضغوط الغرب القوي..) ثم يكمل بوضع وصفة للعرب للخروج من ضعفهم!.. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هو: إلى أين يخرجون، إن لم يكن إلى الالتحاق بالغرب، ما داموا قد تخلوا عن عروبتهم وإسلامهم وتاريخهم.. وبالتالي عن مقومات وجودهم الخاص المتمايز؟!

-٥-

إن ما يدعم كل ما أبرزناه من أقواله أو استنتجناه –وما هو في الأصل النتيجة الفاسدة للمقدمات الفاسدة كما يعبر أهل المنطق– هو كلامه في الهوية. إنه يقول: (الهوية بمعناها التقليدي الثابت، مفهوم لم يعد يقبله العقل اليوم ولا الثقافة المعاصرة. –ولاحظوا أيضاً: نحن في الكوخ شبه المتهدم مؤقتاً، وليست لنا ثقافة معاصرة! – الهوية اليوم هي حركة نمو وتبدل دائم، مع بقاء قدر من الثبات المحدود الذي يتيح لنا أن نتعرف إلى الكائن على أنه هو ذاته عبر متغيراته).

وباعتبار أن الدكتور ألح على المطالب التي بيناها في الفقرة

الثالثة، فما هو ذلك (القدر من الثبات المحدود في الهوية) الـــذي يتركه لنا؟! ثم هو ثبات على ماذا؟!.. وإذا كانت الهوية حركـــة فإلى أين؟ وكيف؟! وإذا كانت نمواً فلأي شيء أو أصـــل؟! وإذا كانت تغيراً وتبدلاً دائمين فنحو ماذا؟!

ويتساءل المرء: كيف يمكن جمع كل هذه النقـــائض، وتلـــك الاستباحات المفزعة المستخفة بأسس وجود نحو من ربع مليـــار عربي من قبل دكتور يدرس الفلسفة، وفي جامعة دمشق ولـــيس في أية جامعة أخرى؟!

طبعاً من الممكن وضع كثير من الشـــوكولا علـــى فطيـــرة مسمومة- لاحظوا من جديد: أنا أستخدم أسماء غربيـــة لأننـــي لست أصولياً حسبما خمّن المعربش الثاني في هرفه المنشور عن ردي على الدكتور! – ولكن، يستطيع صانعو هذه الفطيـــرة أن يتأكدوا أن غالبية المثقفين العرب لن يتناولوا شيئاً منها.

والبقية تأتي!!

❑❑